نزار قباني.. قافية شموخ قاسيون

وزير الثقافة: نزار قباني استطاع إيجاد لغة تميزه عن باقي الشعراء الذين عاصروه

العجلاني: نزار أرّخ لدمشق.. وجعل مآذنها وحمائمها.. وحاراتها.. وزواريبها.. تطوف في كل أنحاء العالم

سارة سلامة
«ت: طارق السعدوني»

«خرافة حرية النساء في بلادنا، فليس من حرية أخرى سوى حرية الرجال»، لم يحمل شاعر عربي هموم المرأة كما فعل نزار قباني حيث كان مدافعاً عن المرأة حقوقها هواجسها، قضاياها، وخلق لها في شعره مساحة من الحرية داعياً لها الخروج من ظلمات قبعت فيها لسنوات طويلة، فمنذ طفولته دخل في صراع مع التخلف والجهل وتمرد وأعلن العصيان على كل الأعراف والتقاليد البالية، وبعد أن كان مقرراً لها أن تعقد في الخامس عشر من الشهر الفائت حيث يصادف الاحتفال بمناسبتين تخصان المرأة وهما عيد المرأة وعيد الأم، أقيمت ندوة الأربعاء الثقافي مع مناسبتين تتوافقان مع الموعد الجديد وهما: ولادته ووفاته، وذلك في مكتبة الأسد الوطنية بعنوان «نزار قباني.. قافية شموخ قاسيون»، وذلك بحضور السيد وزير الثقافة محمد الأحمد ومعاونيه، ونائب وزير الخارجية الدكتور فيصل المقداد، وتضمنت الندوة محاور متنوعة في مسيرة وحياة الشاعر الراحل نزار قباني شملت الأبعاد الشعرية عند نزار قباني، وأوراقاً منسية في حياته، وشعر القضايا في قصائده.

المحتفون بنزار قباني

الحضور يتقدمهم وزير الثقافة ونائب وزير الخارجية

> بركات: لم يحمل شاعر هموم المرأة وهواجسها وقضاياها مثلما فعل نزار
> مروة: نزار كان شاعر قضية يريد للمرأة أن تحب ولكن ليس بالدراهم

قامة إبداعية

استهل وزير الثقافة محمد الأحمد الندوة بالحديث عن اللقاء الأول الذي جمعه بالشاعر الكبير نزار قباني عندما كان طفلاً وقال: «كم كنت طفلاً سعيد الحظ عندما التقيت هذه القامة الإبداعية الرفيعة في منزل جدي، وسئل نزار يومها ما الشعر؟ فأجاب: ما الشمس؟ ما المطر؟ ما الكواكب والنجوم والشجر؟ الشعر هو تلك المياه الجوفية المخزونة التي تنتظر فرصة لتتجه كالبركان من باطن الأرض المالحة، الشعر هو تلك الطبقة السميكة من ملح البحر التي نغطي بها أجسادنا حرصاً ألا تتعفن، الشعر هو ذلك الصراخ الذي نوجهه إلى الليل ليصبح نهاراً وإلى اليباس ليصبح اخضراراً وإلى الخنجر ليصبح وردا، الشعر هو ذلك الانقلاب الذي يقوم به الشاعر من داخل اللغة والقناعات الثابتة لتصير صورة الكون أبهى وأجمل، الشعر هو غاية الحرية التي يسلمها الشاعر لشاعر آخر».

وأضاف الأحمد إن «نزار قباني من الشعراء الذي استطاعوا إيجاد لغة تميزهم عن باقي الذين عاصروه، في دواوينه نلمس الحرية في ولوج المعالم الضيقة على كل ما هو راكد ومستكين، نزار وهو المحب للموسيقا في الشعر نجد أنه قصد قصيدة النثر في كثير من مجموعات، ضارباً عرض الحائط بالتفعيلة والعروض وكل ما هو تقليل من شأن اللغة بقوالب جامدة، وكان يجد دائماً تشكيلات وصياغات جديدة تمكنه من أن يتطور ويضع بصمة مضافة إلى بصمات سبقته، كان يؤمن بأن الشكل الشعري لا يمكن أن يكون وثناً لأن الأشكال لا تخلق الإنسان بل الإنسان يخلق أشكاله».

نزار أرّخ لدمشق

ومن جانبه أضاء الأديب والموثق شمس الدين العجلاني في كلمته التي جاءت بعنوان: «أوراق منسية في حياة نزار قباني» على حياة نزار وهي حياة رجل أرّخ لدمشق، وجعل مآذنها وحمائمها، وحاراتها، وزواريبها، تطوف في كل أنحاء العالم، لتنثر عطر الياسمين الدمشقي على مساحة المعقول وغير المعقول، حياة نزار قباني هي حياة الولد المشاغب الذي كان دائم اللعب بالنار، وطفلاً مشاكساً لم يترك عشاً للدبابير إلا وأضرم النار فيه، فأشعل الحرائق التي لم ينطفئ لهيبها حتى الآن».

وأضاف العجلاني «ومنذ خط شاعر دمشق نزار قباني كلمته الأولى في درب الشعر وهو في صراع مع الجهل والتخلف والعقول المتحجرة» مبيناً أن «نزار لم يهج حاكماً عربياً بحد ذاته إلا حكام المشيخات النفطية حيث قال: «تمرغ.. يا أمير النفط فوق وحول لذاتك.. كممسحة.. تمرغ في ضلالاتك.. لك البترول.. فاعصره.. على قدمي خليلاتك.. كهوف الليل في باريس.. قد قتلت مروءاتك».

حمل هموم المرأة

وبالمقابل رأى الدكتور وائل بركات في محوره الذي جاء بعنوان: «الأبعاد الشعرية في شعر نزار قباني» أنه: «لم يقترن اسم شاعر عربي بالمرأة وبرموزها ودلالاتها كما اقترن اسم نزار قباني، ولم يحمل شاعر هموم المرأة وهواجسها وقضاياها مثلما فعل نزار، فإذا كانت بالنسبة إليه الجمال ورمزه، الكون وأسراره، فإنها بالمقابل صورة للظلم التاريخي وجوهرٌ له»، مضيفاً «لاشك أن نزار أزاح عن المرأة حجبا ظلت قابعة تحتها قروناً من الزمن، وأطلقها في شعره وليس في الواقع، أنثى تعلن أكثر مما تبطن، وأفسح لها مساحة من الحرية لا عهد للشعر العربي بها سابقاً، وجعل من إنصافها، وإن لم تنصف إلا قليلاً، معركته الجوهرية وقضيته الدائمة».

وبين بركات أن نزار بإدمانه حديث عشق المرأة خصص جزءاً مهماً في قصائده للأم بصورة مباشرة مثلما فعل في قصيدة «خمس رسائل إلى أمي» لكنه بثها مبطنة وفي كثير من قصائده التي تحدثت عن المرأة أظهرها أماً أو حبيبةً أو عشيقةً أو جسداً أو مشاعر، أنها حاضرة وملازمة لقصيدته».

شاعر قضية

أما الباحث الدكتور إسماعيل مروة الذي أدار الندوة فقدم محوراً بعنوان «نزار قباني وشعر القضايا»، أشار خلاله إلى أن: «نزار لم يقل شعر الغزل بل شعر القضايا، لم يضع امرأة يتغزل بها، فهو يعلّم المرأة كيف تتجمّل لذاتها وكيف تتجمّل لمن تحب»، مضيفاً إن «الكثير من النقاد الذين يتمتعون بالنفس اليساري أو الماركسي يقولون إن نزاراً قزّم المرأة، والذين ينظرون إلى نزار نظرة أخلاقية يقولون نزار أعطى المرأة وسمح لها بالتحدث والحقيقة ليست كذلك، نزار كان شاعر قضية يريد للمرأة أن تحب ولكن ليس بالدراهم، أن تحب بقرارها لأن الحب مقدس لا أن تبيع الجسد من أجل مال أو منصب أو مكانة ولا من أجل أي شيء، هذا نزار ولو عدنا إلى مجمل أشعاره فسنجده كذلك».

وفي ختام الندوة فُتح الباب للمداخلات وقدم الدكتور محمود السيد مداخلة أكد فيها أن نزار قباني قامة إبداعية شامخة اتسمت بالفكر المستنير وحظيت بشهرة واسعة على نطاق الأمة العربية، نتيجة لأسلوب الشاعر القائم على السهل الممتنع ومحاربة الفكر الظلامي المتخلف إضافة للقضايا التي تناولها من المرأة والوطن والعروبة مع تركيزه الدائم على القضية الفلسطينية.

غنى الوطن والأمة العربية في الانتصارات وأقسى الظروف

عبد الحليم حافظ.. النغم الخالد وصديق الآذان المتعطشة للرومانسية

وائل العدس

أربعون عاماً منذ أن هجر طائر «العندليب» شجرة الغناء ورحل، وكل يوم يمر على رحيله يؤكد حضوره، فهو النغم الخالد، وصوت القلب العربي في أروع دقاته، وأصدق من حمل حلو النغم بين جنباته ليجعل الأغنية حالة عشق صوفي، لذا كانت كل دمعة ذرفها الناس عليه تعبيراً حياً عن ذلك الحب الذي زرعه في قلوبهم بحنجرته.

سيظل الراحل يسكن في وجداننا إلى أبد الآبدين، فصوته مازال صديقاً حميماً لكل الآذان المتعطشة للرومانسية، وطائراً بجناحين طليقين يجوب الدروب بالحب، ويدفعنا إلى الأمام عبر عشرات الأغنيات التي لايزال صداها يتردد من حولنا، وتقودنا إلى أزهار الأمل المتفتحة في غد أكثر بهجة وإشراقاً.

عن حياته

ولد في قرية الحلوات التابعة لمركز الإبراهيمية بمحافظة الشرقية، وهو الابن الأصغر بين أربعة إخوة هم إسماعيل ومحمد وعليا.

توفيت والدته بعد ولادته بأيام، وقبل أن يتم عامه الأول توفي والده ليعيش اليتم من جهة الأب كما عاشه من جهة الأم من قبل، ليعيش بعدها في بيت خاله الحاج متولي عماشة.

كان يلعب مع أولاد عمه في ترعة القرية، ومنها انتقل إليه مرض البلهارسيا الذي دمر حياته، ولقد قال مرة: «أنا ابن القدر»، وقد أجرى خلال حياته إحدى وستين عملية جراحية.

التحق بعدما نضج قليلاً في كتّاب الشيخ أحمد؛ ومنذ دخوله للمدرسة تجلى حبه العظيم للموسيقا حتى أصبح رئيساً لفرقة الأناشيد في مدرسته، ومن حينها وهو يحاول الدخول لمجال الغناء لشدة ولعه به.

التحق بمعهد الموسيقا العربية قسم التلحين عام ١٩٤٣ حين التقى الفنان كمال الطويل، حيث كان عبد الحليم طالباً في قسم التلحين، وكمال في قسم الغناء والأصوات، وقد درسا معاً في المعهد حتى تخرجهما عام ١٩٤٨ ورشح للسفر في بعثة حكومية إلى الخارج لكنه ألغي سفره وعمل ٤ سنوات مدرساً للموسيقا بطنطا ثم الزقازيق وأخيراً بالقاهرة، ثم قدم استقالته من التدريس والتحق بعدها بفرقة الإذاعة الموسيقية عازفاً عام ١٩٥٠.

تقابل مع صديق ورفيق العمر مجدي العمروسي في ١٩٥١ في بيت مدير الإذاعة في ذلك الوقت الإذاعي فهمي عمر. فاكتشف عبد الحليم شبانة الإذاعي الكبير حافظ عبد الوهاب الذي سمح له باستخدام اسمه «حافظ» بدلاً من شبانة.

فترة البدايات

تمتد هذه الفترة من إجازته في الإذاعة عام ١٩٥١ بعد تقديمه قصيدة «لقاء» حتى بدء تصويره أول أفلامه «لحن الوفاء» عام ١٩٥٥، ولم تكن أعراض مرض البلهارسيا قد تفاقمت لديه.

نلاحظ في هذه الفترة أن عدداً كبيراً من الأغاني تحوي نبرة من التفاؤل مثل: «ذلك عيد الندى»، «أقبل الصباح»، «مركب الأحلام»، «في سكون الليل»، «فرحتنا يا هنانا»، «العيون بتناجيك»، «غني.. غني»، «الليل أنوار وسمر»، «نسيم الفجرية»، «ريح دمعك»، «اصحى وقوم»، «الدنيا كلها».

استمرار التألق

تعاون مع الملحن العبقري محمد الموجي وكمال الطويل ثم بليغ حمدي، كما أن له أغاني شهيرة من ألحان موسيقار الأجيال محمد عبد الوهاب مثل: «أهواك، نبتدي منين الحكاية، فاتت جنبنا»، ثم أكمل الثنائي «حليم- بليغ» بالاشتراك مع الشاعر المصري المعروف محمد حمزة أفضل الأغاني العربية من أبرزها: «زي الهوى، سواح، حاول تفتكرني، أي دمعة حزن لا، موعود وغيرها من الأغاني».

وقد غنى للشاعر الكبير نزار قباني أغنيتي «قارئة الفنجان» و«رسالة من تحت الماء» ولحنهما الموسيقار محمد الموجي.

بعد حرب ١٩٦٧ غنى في حفلته التاريخية أمام ٨ آلاف شخص في قاعة ألبرت هول في لندن لمصلحة المجهود الحربي لإزالة آثار العدوان.

وقد قدم في هذا الحفل أغنية «المسيح»؛ كلمات عبد الرحمن الأبنودي وألحان بليغ حمدي، وغنى أغنية «عدى النهار»، وهي أيضاً للأبنودي وبليغ، وهي واحدة من أبرز أغاني حفلات عبد الحليم على مدار تاريخه الطويل.

كان عبد الحليم يحلم بتقديم قصة «لا» للكاتب الكبير مصطفى أمين على شاشة السينما ورشح نجلاء فتحي لبطولتها ولكن القدر لم يمهله.

قدم ثلاثة برامج غنائية هي: «فتاة النيل» للشاعر أحمد مخيمر وألحان محمد الموجي وإخراج كامل يوسف، و«معروف الإسكافي» للشاعر إبراهيم رجب وألحان عبد الحليم علي وإخراج عثمان أباظة، و«وفاء» للشاعر مصطفى عبد الرحمن وألحان حسين جنيد وإخراج إسماعيل عبد المجيد.

أغانيه

رغم الشهرة الكبيرة التي يتمتع بها عبد الحليم إلا أن هناك عدداً كبيراً من أغانيه لا يعرفها كثير من الناس، والسبب الحقيقي أن الإنتاج الإذاعي لا تتم إذاعته وهو مملوك للإذاعة المصرية مثل باقي إنتاجه، وهذا السبب نتج عنه شيء من الندرة وتم الاعتقاد أنه تراث مجهول، ولكنه معلوم لكثير من المؤرخين والإذاعيين المصريين المخضرمين، وإذا حسبنا عدد الأغاني التي قدمها في الأفلام سواء بالصوت والصورة، أم بالصوت فقط، إضافة إلى الأغاني المصورة في التلفزيون، نجد أن عددها يمكن أن يصل إلى ١١٢ أغنية تقريباً، وهذا العدد لا يكاد يشكل نصف عدد أغانيه البالغة نحو ٢٣١ أغنية في المتوسط، كما أننا لم نأخذ في الحسبان الأغاني التي هي بحوزة بعض أصدقائه والتي هي غير متاحة للتداول التجاري.

من أبرز أغانيه العاطفية «على قد الشوق» كلمات محمد علي أحمد، ألحان كمال الطويل، و«توبة» كلمات حسين السيد، وألحان محمد عبد الوهاب، و«يا خلي القلب» كلمات مرسي جميل عزيز وألحان موسيقار الأجيال، و«موعود» كلمات محمد حمزة وألحان بليغ حمدي، و«رسالة من تحت الماء» و«قارئة الفنجان» كلمات نزار قباني، وألحان محمد الموجي، و«جانا الهوى» كلمات محمد حمزة وألحان بليغ حمدي.

وقدم الراحل الكثير من الأغاني والأناشيد الوطنية منها «العهد الجديد» عام ١٩٥٢ وهو أول نشيد وطني غناه في حياته، من كلمات محمود عبد الحي وألحان عبد الحميد توفيق زكي، وقد غناه عبد الحليم بعد قيام ثورة ٢٣ تموز، و«إحنا الشعب» وهي أول أغنية يغنيها للرئيس جمال عبد الناصر بعد اختياره شعبياً لأن يكون رئيساً للجمهورية عام ١٩٥٦.

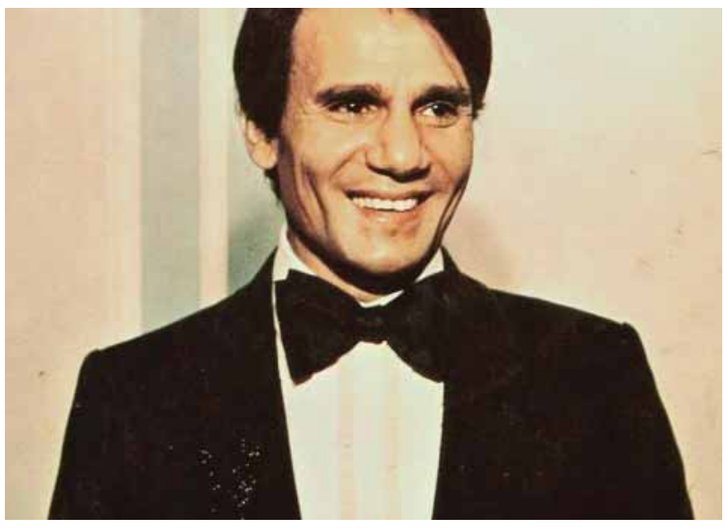

وأقدم محمد عبد الوهاب على تعاونه الأول مع عبد الحليم في مجال الأغاني الوطنية عام ١٩٥٦، في أغنية «الله يا بلدنا» التي غنيت بعد العدوان الثلاثي على مصر.

وأيضاً قدم «على أرضها» أو «أغنية المسيح» التي تتغنى بالقدس من كلمات عبد الرحمن الأبنودي وألحان بليغ حمدي وتوزيع علي إسماعيل.

وعام ١٩٦٠ شارك في نشيد «الوطن الأكبر» كلمات أحمد شفيق كامل وألحان محمد عبد الوهاب.

أما أغنية «أحلف بسماها» عام ١٩٦٧ فوعد عبد الحليم أن يغنيها في كل حفلاته إلى أن تتحرر أرض مصر في سيناء، من كلمات عبد الرحمن الأبنودي وألحان كمال الطويل.

وقدم الراحل عدة ابتهالات دينية منها «نفضت عينيا المنام»، و«أنا من تراب»، و«على التوتة»، و«أدعوك يا سامع»، و«رحمتك في النسيم»، و«بيني وبين الناس»، و«والحبة في الأرض»، «خليني كلمة»، و«ورق الشجر»، و«بين صحبة الورد»، و«يا خالق الزهر».. وكلها من كلمات الشاعر عبد الفتاح مصطفى، وألحان محمد الموجي.

أفلامه

في عام ١٩٥٥ شهد عرض أربعة أفلام كاملة للعندليب، على حين وصف بأنه عامه الذهبي سينمائياً.

قدم في السينما ستة عشر فيلما سينمائيا هي: «لحن الوفاء» مع شادية وحسين رياض، و«أيامنا الحلوة» مع فاتن حمامة وعمر الشريف وأحمد رمزي، و«ليالي الحب» مع آمال فريد وعبد السلام النابلسي، و«أيام وليالي» مع أحمد رمزي ومحمود المليجي، و«موعد غرام» مع فاتن حمامة وعماد حمدي وزهرة العلا ورشدي أباظة، و«دليلة» مع شادية وفردوس وهو أول فيلم مصري ملون، و«بنات اليوم» مع ماجدة وآمال فريد وأحمد رمزي، و«الوسادة الخالية» مع أحمد رمزي وعمر الحريري ولبنى عبد العزيز، و«فتى أحلامي» مع منى بدر وعبد السلام النابلسي، و«شارع الحب» مع صباح والنابلسي وحسين رياض، و«حكاية حب» مع مريم فخر الدين ومحمود المليجي والنابلسي، و«البنات والصيف» مع زيزي البدراوي وسعاد حسني، و«يوم من عمري» مع زبيدة ثروت والمليجي والنابلسي وسهير البابلي، و«الخطايا» مع عماد حمدي وحسن يوسف وناديا لطفي ومديحة يسري، و«معبودة الجماهير» مع شادية وفؤاد المهندس ويوسف شعبان، و«أبي فوق الشجرة» مع عماد حمدي وميرفت أمين وناديا لطفي وكان آخر أفلامه.

حليم في عملين

تم عرض فيلم روائي بعنوان «حليم» في تموز عام ٢٠٠٦ من إخراج شريف عرفة، قام بدور البطولة فيه الممثل المصري المشهور أحمد زكي الذي توفى بعد إنجاز ٩٠٪ من الفيلم، كما قام بدور عبد الحليم في مرحلة الشباب ولده هيثم أحمد زكي.

كما تم تصوير وإنتاج مسلسل «العندليب حكاية شعب» الذي يروي سيرة عبد الحليم إضافة إلى الأحداث التي مرت بها مصر خلال فترة وجوده منها قيام الثورة المصرية، وصعود جمال عبد الناصر، والحرب مع الكيان الصهيوني، وقام بتمثيل دور الراحل الممثل شادي شامل الذي فاز في مسابقة أقيمت للعثور على ممثل شاب يشبه بصورة كبيرة المغني الأسطورة وفي مقدوره أن يؤدي دوره على شاشة التلفزيون.

لكن رغم هذا فإن المسلسل لم يكن قوياً كما كان متوقعاً، فقد أهمل الكثير من التفاصيل المهمة في حياة عبد الحليم وانتقده النقاد بشدة لضعف أدائه الفني وتغيير بعض المجريات من قصة حياته.

رسالتان باليد

عاش حليم حياة صعبة في بدايتها ونهايتها، وحاول أن يُخرج هذه الأحاسيس في الكتابة، بالتعبير عمّا يشعر به.

وهناك رسالتان شهيرتان بخط يده، فكتب مقدمة لمذكراته، التي قرر تجميعها: «عندما فكرت في كتابة مذكراتي.. أحسست أنني أريد أن أصرخ بكل ما حدث في عمري مرة واحدة، حب.. وفاء.. مرض.. خيانة.. صداقة.. ألم.. سعادة.. رحلات إلى معظم بلاد الدنيا باختصار الحياة رحلة رائعة رغم كل ما فيها من آلام.. والآن أحاول بهدوء أن أحكي للأوراق حكايتي».

واعتبر أن جمهوره سانده في أزمة مرضه، إلى جانب بعض الأصدقاء والأطباء، ولهذا قرر كتابة رسالة لهم، فكتب في الرسالة الثانية: «عندما كُنت أعاني أعنف الآلام وأنا في لندن، لم تمُر لحظة واحدة أحس فيها أنني وحدي، كنت أحس بدعوات الناس توصل بيني وبين الله وتعبر طوفان الألم... ولم أكُن وحدي.. فقد كانت الخطابات والتلغرافات والمحادثات التلفونية هي صلة الروح بيني وبين أهلي وأحبابي وأصدقائي.. والجمهور الطيب الحبيب.. والطلبة العرب في لندن دائماً بجواري.. وقد نصحني الأطباء بالراحة.. ٥ ساعات عمل يومياً فقط.. والنوم ٩ ساعات.. والباقي راحة وتفكير هادئ في الفن.. ثم ماذا أستطيع أن أقوله؟ كل شكري وحبي وفني وروحي إلى كل الناس وكل الجمهور.. وإلى اللقاء القريب».

الوصية

أوصى عبد الحليم في وصيته أن تظل شقته أمام حديقة الأسماك في حي الزمالك باسمه، وأن تبقى مفتوحة لمن يحب أن يزورها من جمهوره أو معجبيه، وأن يسكنها من يشاء من أشقائه مع شحاتة وفردوس ابني خالته، اللذين كانا يخدمانه من وقت أن انتقلا معه إلى شقته.

اللحظات الأخيرة

قرر الأطباء المعالجون إجراء عملية الحقن السنوي لدوالي المري رغم سوء حالة العندليب الصحية ورفضه بشكل قاطع إجراء عملية زرع الكبد بعد أن أكد له الأطباء أن حالة كبده سيئة جداً والعملية بها خطر شديد واحتمال إصابته بالنزيف بعد العملية كبير.

الحالة الصحية للعندليب لم تكن تسمح أبداً بإجراء العملية، ولكن العملية كانت الحل الوحيد للحفاظ على حياته، وأجريت العملية في منتصف اليوم ولكن بعد وقت قليل وبالتحديد في الثامنة مساء فوجئ الأطباء بأن النزيف جاء بشكل حاد وغير متوقع واندفعت شلالات الدماء من جوانب متفرقة من جسده النحيل وفشل الأطباء على مدى ساعتين في السيطرة على هذا النزيف غير المتوقع بهذا الكم، فحاول الأطباء المستحيل حتى بتقليل النزيف من دون جدوى لدرجة أن السرير وأرضية الغرفة امتلأت بالدماء حتى لفظ العندليب أنفاسه الأخيرة في العاشرة مساء الأربعاء ٣٠ آذار ١٩٧٧.